المحاضرة الثامنة

عنوان المحاضرة: التأثير والتأثر في الأدب المقارن.

الأستاذ: عدنان فوضيل

تعتبر قضية التأثير والتأثر من بين أعمق القضايا التي اهتم بها الأدب المقارن، بوصفها قضية محورية وشائعة منذ البدايات الأولى لعلم الأدب المقارن، منه فـ" التأثر والتأثير مفهوم في صلب الأدب المقارن بمناهجه كافة وإن تفاوتت في تحديد آفاقه ومسبباته ووسائله والصلات التاريخية المنبجس عنها"[1]

ومنه فإنّ كلّ إنتاج جدير أن نطلق عليه تسمية أدب يبلغ حد الكمال والتمام بالأخذ والعطاء والانفتاح، لا بالانكماش والانطواء، وتنطبق هذه الحقيقة على الأدب العربي وعلى كافة آداب الأمم والشعوب فتتجلى عملية التأثير والتأثر كحركة ذات حدين تعمل دائبة ونشيطة وفعالة[(2)] .

وقد تعرّفنا في المحاضرات السابقة أنّ الأدب المقارن هو العلم الذي يدرس الصلات الأدبية بين الآداب المختلفة، ومواطن الالتقاء بينها في ماضيها وحاضرها والتأثرات العديدة التي تكون بين بعضها والبعض الآخر أيا كانت مظاهر هذه التأثرات، وسواء تعلقت هذه التأثيرات بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية، أو بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب، أو الصياغة الفنية

---

[1]- يوسف بكار، خليل الشيخ، الأدب المقارن، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان الأردن، دط، 2008، ص 63.

[2] ينظر : ريمون طحان، الأدب المقارن والأدب العام، دار الكتاب اللبناني، بيروت/لبنان، ط1972،1م،ص09.

والأفكار الجزئية في العمل الأدبي، أو بتغير ذلك من مظاهر التأثرات والتأثيرات المختلفة[1] .

ويتبين من هذا مواطن التأثير والتأثر، إذ لم تقتصر على جنس أدبي، أو موقف فكري بل كل ما يغير من نمط معين ومنه يكون " التأثر يكون في المرسل إليه من المرسل، وتكون مصادر تأثره من آداب أجنبية"[2]

ولأهمية هذه العملية نادى الكثير من الباحثين منذ عصر الأنوار إلى الانفتاح على على انتاجات الغير لما لها من أهمية كبرى في تطوير الأدب، فهي " حقيقة جد جوهرية لتقدم الآداب، بحيث لا يصح أن ينساها أو يهون من شأنها أولئك الذين يمارسون الأدب، والأمة الفرنسية بخاصة، قد شعرت من قديم بفوائد تبادل الصلات بين الآداب"[3] .

منه فلقد فهم مفكري هذه البلدان أهمية هذه العملية في تطوير آدابها من جهة، كما أدركوا أيضا أنّه لا يمكن لأيّ أدب التهرّب من عملية التأثر ما دام في احتكاك مستمر مع غيره من الآداب، " فليس هناك أدب قومي لم يتأثر بالآداب القومية الأخرى بصورة من الصور، كذلك فإنّ لأصالة الأدب القومي وخصوصياته وتفرده حدودا. فقد دلت دراسات التأثير والتأثر على أن هذه الأمور نسبية، وأن الآداب في حالة تفاعل وتبادل، وأخذ وعطاء"[4].

---

[1] ينظر: سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، ص313

[2]- يوسف بكار، خليل الشيخ، الأدب المقارن، ص 63.

[3] محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، ط09، 2008م، ص98/97.

[4]- عبده عبود، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 28.

وإذا كان ثمة فخر للبلد المعطي فلا عار على البلد الآخذ، وإنما له فخر الفهم والاستيعاب والإضافة، فالإنسانية وحدة متفاعلة وثقافتها كل لا يتجزأ، ويضيف اللاحق إلى ما تركه السابق في كل العصور وكل الأزمنة [1] .

ويخضع الأدب لهذه التيارات، إذا انطوى الأدب القومي أو الوطني على نفسه، ذبل وأصيب بالوهن وحل فيه السقم والضعف، ولذا نراه يرتوي من المناهل الغريبة عنه، ويتمثل بعض ما تقدمه له، ونقول: إن أروع الآثار الأدبية القومية تعتمد دوما على الموارد الأجنبية والغريبة .

طبعا يبحث الأدب المقارن في هذه العملية عبر تتبع هذه الآثار، وقد اهتدى الباحثون إلى الطريقة المثلى، إذ " يعتمد منهج البحث في دراسة التأثر على الانطلاق من نص (المستقبل/ المتلقي/ المتأثر) للبحث عن وجوه التأثر وتحديد مصادره اعتمادا على عامل الزمن، أي أسبقية المصادر التي اعتمدها في انتاجه"[2]

ويظهر الرأي السابق قضية الأسبقية في الإنتاج في تحديد التأثير والتأثر، إذ ليس من المنطق أن يتأثر السابق باللاحق.

يقدم لنا الباحث المصري محمد غنيمي هلال مواطن التأثير والتأثر، ويقسمها إلى أربعة علاقات أو أنواع : :

1-التأثير الشخصي: تأثير (روسو) في أديب ما، أو أدب ما.

2-التأثير التقني/الفني: مثلا: عظمة الدراما الشكسبيرية إزاء الرومانسيين الفرنسيين.

3-التأثير الفكري: مثلا: انتشار الفكر الفولتيري.

---

[1] ينظر : ريمون طحان، الأدب المقارن والأدب العام، ص61.

[2]- يوسف بكار، خليل الشيخ، مرجع سابق، ص 64.

4-التأثير في المواضيع والأطر: مثل استعارة المواضيع من المسرح الإسباني إلى المسرح الفرنسي في القرن السابع عشر.[1]

ويشرحها لنا يوسف بكار بقوله:

- ❖ إعجاب أديب بآخر أجنبي لأنه يعبر عما في فكره ونفسه.
- ❖ فقر الأدب القومي في عصور انحطاطه مع وجود آداب غنية تمده بما لا يفقده هويته وأصالته، وبما يساعد على نهضته ونموه
- ❖ الرغبة في التجديد بعد مدة طويلة من انكفاء الأدب على نفسه وانغلاقه.[2]

وإذا كان تصنيف دراسة التأثير يتوقف على طبيعة الشيء المنقول أو نوعه، فعلينا أن نأخذ في الحسبان الجوانب الخمسة للعمل الأدبي التي تقبل الانتقال، وهي [3] :

1-**الموضوع** بوصفه مادة العمل الأدبي، ببنائه وتفصيلاته، وعوارضه وأحداثه، وشخصياته وملامحه.

2-**الشكل**: أو النموذج الأدبي، أي النوع الذي ينتمي إليه العمل المؤثر، وليس من الضروري أن يكون هو نفسه في العمل المتأثر.

3-**التعبير**، ومصادر الأسلوب والصور الأدبية، وباختصار الثوب الأدبي الذي اكتساه العمل، ويعتبر أكثر ذاتية، وأقل تشابها مع العمل المؤثر.

4-**الأفكار والمشاعر**: وتشمل الإضافات الفكرية من أي لون.

5-**الشهرة الواسعة**، والنغم المميز، الذي لا يخطئ لشخصية الكتاب العظام الفنية.

وليس من الضروري أن نلتقي بهذه العناصر كلها، في العمل المتلقى دفعة واحدة، وإذا نوى باحث أن يقع عليها كذلك، وهو شيء من الصعب تخيله، فيمكن القول سلفا بأننا

---

[1] محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص89/88، و الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن، ص 272.

[2]- يوسف بكار، خليل الشيخ، مرجع سابق، ص 63.

[3] ينظر: الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، ص271.

بصدد ترجمة وليس تأثيرا، لأن التأثير يقتصر في معظم الحالات عل جانب منها أو اثنتين، كأن يفتن المؤلف بجانب واحد من العمل الذي يحتذيه، كبناء عقدة القصة، أو بالجديد في الأسلوب، ويشغل بذلك عن أفكاره أو النظرة الكلية إليه، وطبعا يتفاوت التطبيق بتفاوت القضايا، وعلينا أن نأخذ دائما في الحسبان، وقبل أن نبدأ العمل، أن تعدد المقاييس يؤدي بالضروري إلى نتائج محددة [1] .

ومما سبق، يتبين أن دراسة التأثير والتأثر عمل دقيق يقتضي جهودا جبارة، وله قواعده الخاصة التي ينبغي مراعاتها، وهي[2] :

-الحذر قبل الجزم بوجود تأثير وتأثر.

-اختيار أدباء يمثلون خصائص أدب قومي، ثم التعرف على مدى تأثرهم بأدب أجنبي وتأثيرهم فيه.

-الابتعاد عن العموميات، من مثل قولهم: يمثل شكسبير العبقرية الإنجليزية، غوته من نتاج الروح الألمانية...وغيرها.

-التقيد بقواعد الزمان.

من هنا، كان هذا النوع من الأدب المقارن هو أكثر فروعه انتشارا لدى الباحثين من الفرنسيين، وذلك لوضوح منهج البحث فيه، وللوثوق من الوصول إلى نتائج تتناسب وما يبذله الباحث من جهد، وهو يتطلب مع ذلك سعة اطلاع ودقة في التحليل، وصبرا في الباحث، وذكاء في فهم النصوص، كما يتبين ذلك من معرفة الأسس الآتية التي يجب اتباعها فيه، وهي[3] :

---

[1] الطاهر أحمد مكي، نفسه، ص272.

[2] ينظر: ريمون طحان، الأدب المقارن والأدب العام، ص60، 61.

[3] ينظر: محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص88.

1-يجب تحديد نقطة البدء في التأثير من مؤلفات كاتب ما أو كتاب واحد من بينها، أو من شخصية ذلك الكاتب بوصفه وحدة لا تتجزأ مع مؤلفاته.

2-يجب تحديد الوسط المتأثر، بلدا كان أم مؤلفا، مثال ذلك: تأثير الكاتب الفرنسي"**جي دي موباسان**" في القصة المصرية القصيرة، أو في مؤلفي القصة القصيرة العربية في القرن العشرين، أو في "**تيمور**" فقط.

3-يجب التمييز بين حظ الكاتب في ذيوعه وانتشار مؤلفاته، وبين حظه في محاكاته والتأثير به، فقد يكون الكاتب ذا حظ عظيم في ذيوع مؤلفاته وترجمتها، ولكنه مع ذلك ذو حظ أقل من جهة محاكاته والتأثر به.